المقاربة التداولية لبنية الخطاب الوعظي الحجاجي

ـ خطبة الإمام علي أنموذجا ـ

أ. يوسف نجعوم
جامعة أم البواقي

الملخص

تطورت التداولية الأدبية فأصبحت تعرف بنظرية السياقات أـونظرية الأفعال الكلامية، إلا أن هذا التطور أوجد لها ركاما من المصطلحات، وكمٍّ من التصورات؛ مما أوقع الباحث في إشكالية تطبيق هذه النظرية على النص الأدبي.

لقد ارتأيت في هذه الدراسة أن أختار خطابا أدبيا له من كثافة المعاني وتعدد التأويل، ما يسمح لنا بتطبيق هذه النظرية بجميع عناصرها الإنجازية؛ وقد يكون أنموذجا يستعين به الدارس والباحث معا في مقاربة تداولية لأي خطاب.

الكلمات المفتاحية: المقاربة التداولية ــ الخطاب الوعظي ــ الحجاج، خطبة الإمام علي.

Résumé :

Depuis que la pragmatique a porté son attention sur le texte littéraire elle a connu un développement notable. Cependant, ce développement a créé une quantité de terminologies et de conceptions rendant problématique l'application de la théorie des actes du langage sur le texte littéraire. Nous avons choisi dans cette étude un discours littéraire nous autorisant à appliquer dans l'espoir de constituer un modèle utile pour le chercheur dans son approche pragmatique.

Mots clés : proche pragmatique, Discours prédication, argumentatif. Sermon de l'Imam Ali

مقدمة البحث:

يُعبِّـــــــرُ الخطاب منذ الأزل عن الرُّقيّ الإنساني، فهومَظهرٌ من مَظاهرِ التواصُلِ الفِكري، ونظرًا لما في الخِطابِ من عَظمةِ البيانِ والتأثيرِ، فقد ذُكِرَ في القُرآنِ الكَريمِ في أكثرِ من مُناسبةٍ . قال تعالى على لِسانِ نبيّه موسى عليه السَّلام :﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوأَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [1] ؛ فالبيان بفصاحة اللّسان هوالوسيلة الأولى للتوجيه والإقناع والتأثير .

إشكالية الدراسة:

تفاقمَ دورُ الخطابِ في العصرِ الحديثِ مع تطوّرِ الحقولِ المعرفيّةِ، فازدادت درجاتُ فعّاليته وخُطورتِه فبعد أن كانت وجهة الفلاسفة والبلاغيين والنقاد متجهة إلى [ريطورية] أرسطوعند الغرب، و[البلاغة العربية] عند العرب ؛ تغيرت وجهتهم في العصر الحديث نحوالتّداولية [البلاغة الجديدة]، إلاّ أنّ ارتباطِها بحقولٍ معرفيةٍ عدّة كـــ(علم اللغة والبلاغة والمنطق وعلم الاجتماع علم النفس..) أوقعتها في كَومَةٍ من المصطلحات ورُكامٍ من التّصوّرات، انعكس ذلك في أن المقاربة التداولية للخطاب الأدبي غير موحدة ولا منسجمة، وتحوم حول هذا الإجراء كثير من الاختلافات، والإشكالات، لذلك تقف هذه الورقة البحثية على هذه الإشكالية التي أرهقت الكثير من الباحثين والدّارسين للمقاربة التداولية متسائلين.

[1] ـــ سورة القصص:الآية 34-35

ـــــــــــــــــ ماهوالتحليل التداولي الأمثل لمقاربة الخطاب الحجاجي وخاصة الخطاب التّراثي العربي؟

أهداف الدراسة:

سعى الباحث في هذه الدراسة إلى اقتراح أنموذج للتحليل يساعد الباحثين في مقاربتهم للتداولية أي نص أدبي تراثي.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة التطبيقية في السعي إلى تحقيق الهدف الأساس المتمثل في خِدْمة الغاية المعرفيَّة الَّتي أَتوخَّاها من تحليلِ الخِطابِ الأدبيّ التراثي الوعظي بالمقاربة التداولية، بعيدا عن التعقيدات وكثرة التصورات، من خلال اقتراح بعض الإجراءات التي أعتقد أنها ستختصر الطريق وتيسر التحليل

والدراسة؛ بتطبيق نظرية أفعال الكلام على الخطاب الأدبي مهما كان نوعه وطبيعته. بالإضافة إلى أن للبحث أهمية فرعية؛ كونه يضع الباث والمتلقي في آخر ما توصل إليه فن الخطاب بصفة عامة

والتواصل والإقناع بصفة خاصة، في عالم يعيش انفجارا ثقافيا وإعلاميا مهولا، كان الخطاب فيه العنصر البارز في توجيه المتلقي الخاص والمتلقي الكوني وحتى المتلقي الافتراضي. وبذلك نجعل المثقف المسلم والمثقف العربي يلامس روح العصر، ويواكب التقدم الحاصل على الصعيد العالمي في هذا المجال؛ لكونه ذا قيمةٍ معرفيّةٍ شاملة مستمرة تعيد النظر في أدوات الواقع الخطابي والإعلامي ومفاهيمه وعلاقاته .

منهج الدراسة:

اعتمد الباحث في تحليله على المقاربة التداولية في آخر ما توصلت إليه نظرية أفعال الكلام ونظرية السياقات، مع ضرورة التنبيه إلى أن التداولية ليست منهجا بحتا له قوانينه الإجرائية، ولا هومذهب نقدي خالص؛ وإنما هي طريقة استعمالية في التحليل؛ للناقد أوالدارس أوالباحث الحرية الكبيرة في أن يختار من الدراسة النقدية ما يتلاءم وخصوصية النص المدروس، وظروف نشأته، معتمدا على ما أتاحه الجانب البلاغي والتداولي من النظريات في شقها العربي والغربي بالارتكاز على المقاربة التداولية، من خلال المزج بين عناصر اللغة وعناصر السياق المرتبطة بقطبي الخطاب (المتكلم والمخاطَب)، مع إبراز الظروف التي كانت سببا في نجاح العملية التبليغية؛ ونحن مع ذلك لن نضيف جديدا إلى النظريات التداولية، إنما سنعيد تنظيم بعض المفاهيم؛ لتستجيب للغايات التي من أجلها وضعت لتيسير إجراءاتها، وتحليل الخطاب الإنساني تحليلا سليما ومفضيا إلى نتيجة .

- **أدوات التحليل:** اعتمدت في التحليل التداولي لهذا الخطاب على عناصر الدرجة التداولية الثالثة؛ لكونها متعلقة في عمومها بأفعال الكلام المشكلة من: [الفعل الإسنادي والفعل الإحالي والفعل الدلالي والفعل الإنجازي] والعنصر الأخير منها سيأخذ النصيب الأوفر في التحليل. بالإضافة إلى ما يتعلق بآليات التحليل البلاغية في تقاطعها مع الدّراساتِ التداوليّة.

هيكل البحث:

اعتمد هيكل البحث على جانبين، جانب نظري وضّحت فيه التداولية ومراحل تطورها وعلاقتها بالخطاب وبمختلف الحقول المعرفية، وجانب تطبيقي ارتكز البحث فيه على دراسة البنية الداخلية والبنية الخارجية للخطاب، وفي الأخير النتائج المتحققة من هذا التحليل.

I المبحث النظـري:

أ. مفهوم التداولية في العصر الحديث:

بَرَزَتْ التداوليّةُ في العَصْرِ الحَديثِ بُروزًا واضِحًا مِنْ خِلالِ مَا أَنْجزَه الفيلسُوفُ الإنكليزيّ (أوستنAustin) في العَقدِ السّابعِ من القرنِ العشرين، إثرَ صُدورِ كِتابِهِ المَوسُومِ بـــ(كيف نصنعُ الأشياءَ بالكلمات)، فتحدّدَت التّداوليّة عنده على " أنّها جزءٌ من دراسةِ علمٍ أعمٍ: هي دراسةُ التّعاملِ اللّغويِّ من حيثُ هوجزءٌ من التعاملِ الاجتماعي". [1] هذه النّظرية التي تزَعّمَها بعده مَجموعةٌ من الباحثين من فلاسفةِ اللّغةِ المنتمين إلى التّراثِ الفلسفيّ لجامعةِ أوكسفورد وهم : (أوستن)، و(سيرل Searle)، و(جرايسGrice)، الذين استطاعوا بأبحاثِهم أنْ يفتحوا آفاقًا جديدةً بإخراجِ هذه الدَّراساتِ اللغويّةِ من المِساحةِ المغلقةِ التي تعثّرَ فيها البحثُ اللُّغويّ البنيويّ أواللساني سابقًا في كثيرٍ من جوانبِه إلى مقارباتٍ أوسعٍ، وحقولٍ معرفيةٍ أنجع من خِلالِ اهتمامِهم بـــ :"علاقة العلامات اللغوية بمستعمليها، وكيفيّة استعمالِها وتأثيرِها "[2]، وهذا ما تقتضيهِ النّظرةُ الشّموليّةُ للخِطابِ مِنْ ضَرورةِ مُراعاةِ الأبعادِ الثّلاثةِ المكوّنةِ لَهُ، وهي على التّوالي:" [البعدُ التركيبي] ويهتم بدراسة علاقة العلامات بعضها ببعض، و[البعد الدلالي] ويدرسُ علاقةَ العلامةِ بالواقعِ في حين

1ـــ فرانسواز أرمينكو. **المقاربة التداولية** ، ترجمة د ، سعيد علوش، (مركز الإنماء القومي : مكتبة الأسد ، 1986) ، ص:96.

2ـــ ينظر: عبد الهادي بنظافر الشهري ، **استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية** ،(بيروت : دار الكتاب الجديد، ط1، 2004)، ص:21.

نجد [البعد التداولي] يهتمُّ بدراسةِ علاقة العلامة بمستعمليها وبمجالات استعمالِها ونتائجِها ". [1]

والتي يمكنُ إبرازَ ذلك في المخطوطةِ على الشكل التّالي: اهتمامات التداولية	أوجه التشابه	اهتمامات تحليل الخطاب
⇐	ـــــ الاهتمام بتحليل الخطاب المكتوب والمحكي ـــــ دراسة النص مهما كان حجمه ـــــ الاهتمام بالسياق بكل عناصره ـــــ دراسة البعد التركيبي والبعد الدلالي والبعد التداولي	⇒

يتّضِحُ مما سبق أنّ " العلاقةَ بين تحليلِ الخطابِ والتداوليةِ، علاقةٌ وطيدةٌ، فكلٌّ منهما يهتمُّ بدراسةِ النُّصوصِ وتحليلها من خلال الاهتمامِ بالمتكلمي (المخاطِب) و(المخاطَب) ومقاصدهم، والسِّياق الذي يرد فيه الخطابُ، والعناصر الإشاريّة والمبادئ الحوارية" [2]. وعن هذا التَّيارِ تكونّت تياراتٌ أخرى قد تتقاربُ وقدْ تتباعدُ عن نظريَّةِ (أوستين)، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ مع بلاغةٍ جديدةٍ نشأتْ

واقترنَت بجملةٍ من المعارفِ والأجناسِ، " تتلاقى فيه جملة من العلوم المعرفية المختلفة أهمها: علم اللغة الخالص، والبلاغة، والمنطق، وفلسفة اللغة، وكذلك علم الاجتماع وغيرها من العلوم المهتمة بالجزء الدلالي من اللغة"[3]، معتمدةً في ذلك على جميعِ هذِه العَناصرِ التواصُليّةِ خاصَّةً تلك التي أهملتها الدِّراساتُ البنيّويةِ أواللّسانيات، إذ يُمكِنُ توضيحُ هذِهِ النّقاطُعَاتِ فيما يأتي:

---

[1] ــ ينظر: عبد الهادي بنظافر الشهري ،المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[2] ــ ينظر: محمود نحلة. **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**، ص. 1

[3] ــ فرانسواز أرمينكو. **المقاربة التداولية**، ترجمة سعيد علوش، (الرباط: مركز الإنماء القومي، 1986) ص95

النظرية والاتجاه	اهتماماتها
ـــــ الاتجاهات النفسية والتاريخية	ـــــ المتكلم
ـــــ البنيوية والسيميائية والتفكيكية	ـــــ النص
ـــــ نظرية التلقي والقراءة	ـــــ المتلقي
ـــــ التداولية	ـــــ اهتمامها بكل عناصر التواصل: (مرسل ومتلق ونص والظروف المحيطة بإنجاز النص)

ب. التداولية في النقد المعاصر:

تحولّت التداوليّةُ في النّقدِ المعاصرِ من المجالِ اللّغويِّ والمِنطقي والفلسفي إلى مجالات الأدب فأصبحت تُعرفُ بـــ [التداوليّة الأدبية]، والتي تُمثّلُ مقاربةً لدراسةِ النصوصِ وتحليلِها وفي هذا المجالِ تكونُ " التداوليات نظريّة استعماليّة حيث تدرس اللغةَ في استعمال الناطقين بها، ونظريّة تخاطبيّة تعالجُ شروطَ التبليغِ والتواصلِ الذي يقصدُ إليه الناطقون من وراءِ الاستعمال للغة "[1]. وبهذا تعود بوادرُ الانتقالِ إلى ضرورةِ فهمِ النّصِّ انطلاقاً من ارتباطِه بالتحديداتِ السيّاقية؛ لتُعرفَ فيما بعد بـــ: [نظرية السياقات]، إذ" دعا (ماكس بلاك) لتسمية التداولية بالنظرية السياقيّة" [2]؛ لكونها تبحث في سيّاق الإنتاجِ والاستقبالِ . لتتَحوّلَ في آخرِ مراحلِها إلى نظريّةٍ في دراسةِ [أفعال الكلام].

1 ـــ نعمان، بوقرة. **المدارس اللسانية المعاصرة**، ص:33.

2 ـــ فرونسوا أرمينكو. **المقاربة التداولية**، ص:5

وفي خِضَم كلِّ هذه المراحلِ المتطوّرةِ عرفَتْ التداوليّةُ رُكامًا من المصطلحاتِ وتعقيداتٍ في المفاهيمِ ؛ بسببِ تقاطُعِها بمختلفِ المَعارفِ ؛ كالاختلافِ الحاصلِ في تحديدِ اهتمامات التداوليّةِ وعلاقتِها بالحِجاجِ والإقناعِ واللّغةِ، والخطابِ ...] وما يتبعُ ذلك من مسائلٍ لا يسمح المقامُ بذكرِها كُلِّها مما يجعلنا ـــــ اختصارًا للوقتِ والجهدِ ـــــ نستأنس بالقولِ الآتي: " اللّغةُ تحملُ بصفةٍ ذاتيةٍ وجوهريةٍ وظيفة حجاجية" [1] .

أمّا ما يتعلّقُ بالخِطابِ فيمكنُ الاستئناس إلى ما وضّحَهُ (أرسطو) حين قسّم بِنيّةَ الخِطابِ الإقناعيّ إلى ثلاثةِ عناصرٍ: وسائل الإقناعِ والبراهين، الأسلوب والبناء اللغوي، ترتيب أجزاء القول " [2]، مع الأخذِ بكل ما في التداولية من عناصرِ التحليلِ كالسّياقِ والقصدِ ودورهِما الكبيرِ في فهمِ اللّغةِ والعمليّةِ التأويليةِ وأبنيّةِ الحجاجِ والأفعال الإنجازية، بالإضافةِ إلى الوسائلِ والأدواتِ اللغويّة والأساليبِ والأبنيّة التعبيريّةِ التي تشهدُ على أن الخطابَ خطابٌ أدبيٌّ حجاجيّ ؛ مما يجعلنا نكثّف التركيزَ أكثر في تحليلنا على هذه الوظائفِ بحصرِها شاملةً ومنتظمةً في دراسةِ البنيّة الداخليّة والبنيّةِ الخارجيّة للنّصّ، لمَا تحملُهُ في طيّاتِهما من الوسائلِ التي تعملُ على تحقيقِ أهداف تحليل الخطاب الأدبي التراثي.

استطاعت التداولية بفضل أعلامها: (فان ديك، غرايس، أوستن، سيرل، جون ديوي، هانسون...)، أن تفتح بنظرياتها آفاقا جديدة، في الدراسات اللغوية وإجراءات لا يمكن الاستغناء عنها في فهم أبعاد اللغة والخطاب؛ فغدت حقلا لسانيا

---

[1] ـــــ حمداوي، جميل. **"في المقاربة التداولية في الأدب والنقد"**، (دراسة ضمن مجلة العربية والترجمة)، (ع 9)، بيروت ، لبنان ، المنظمة العربية للترجمة. ربيع 2012، ص:25

[2] ـــــــ محمد ، العمري. **في بلاغة الخطاب الإقناعي**، (ط) ، (إفريقيا الشرق ، المغرب، 2002)،ص.20

يهتم بالبعد الإنجازي للكلام، ويأخذ بعين الاعتبار كلا من:(المتكلِّم والمتلقي والسياق). ونجد في هذا المجال أبحاث(فان ديك) التي تعدّ بدءا من"عام (1979) تاريخاً حاسماً في تحولها من علم الدلالة إلى نظرية أدبية عامة تشتمل على نظرية للنصوص الأدبية ونظرية للتواصل الأدبي" [1] فأصبحت الذرائعية الأدبية مقياساً للحكم على أدبية الأعمال الفنية، بعد أن عرفت تطورا كبيرا فغدت تعرف بـــ [نظرية السياقات] تبحث في سياق الإنتاج والاستقبال، ثم إلى نظرية في [الأفعال الكلامية] التي تعتبر من أبرز ما تهدف إليه التداولية، في مجال الدراسات اللسانية " وأحد أهم المفاهيم الأساسية في اللّسانيات التَداوليّة[2]. بعد أن قام بتطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى جامعة(أوكسفورد) وهم: [أوستين، سيرل، غرايس] فانصبت اهتماماتهم حول دراسة استعمال اللغة، وخاصة الخطاب مع التركيز على عنصر التداول فيه والقصدية والأهداف، وطريقة استخدام اللغة، وكيفية التعامل معها بقواعد التخاطب، ومبادئ التعاون الحواري، ومنطق التأدب . إن ما يجب معرفته في هذه النظرية أن (أوستين) ينطلق من أن الوحدة الأساسية للغة، هي [الأفعال الكلامية] والمقصود به [الوحدة الصغرى] التي بفضلها تحقق اللغة فعلا بعينه، وإذا اعتبرنا الأقوال أفعالا فإنها تسعى لتحقق شيئا ما، وبالتالي فإن المسألة لا تتعلق بالصدق والكذب فقط، وإنما بالسياق والمناسبة التي تم فيها بالفعل أيضا. إن الفعل الكلامي فحواه أنّه:" كلٌ ملفوظٍ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، ويعدّ نشاطًا نحويًا يتوسل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية وغايات تأثيرية تخصّ ردود فعل المتلقي، فمن

1ـــــــــــ خوسيه ماريا. **بوثويلو إيقانكوس.** ترجمة حامد أبوحمد، (القاهرة : مكتبة غريب)، ص76.

[2] - مانغونو، دومنيك. **المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب** محمد يحياتن، (الدار العربيّة للعلوم،1،2008)، ص 7.

ثمّ فهوفعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريًا في المخاطب، لإنجاز شيء ما"[1]. فقسم (أوستن) الفعل الكلامي الكلي (Acte de langage intégral) إلى ثلاثة أفعال ترتبط بالقول (locution). نوضحها في المخطوطة التالية:

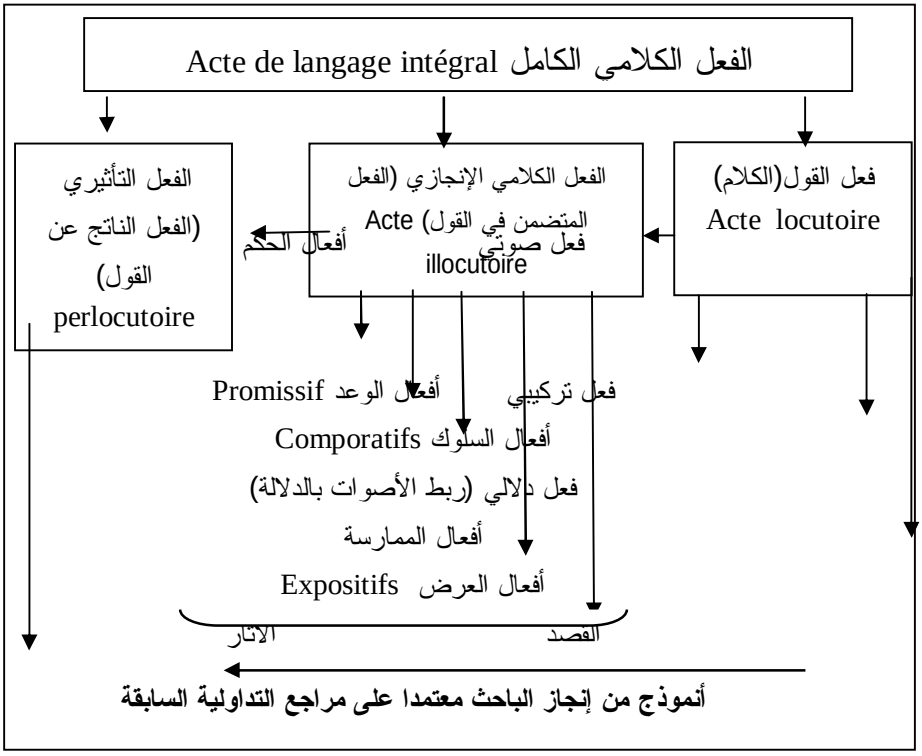

[1] ـــــ مسعود، صحراوي . **التداولية عند العلماء العرب**،(حسين داي الجزائر :دار التنوير للنشر،2008) ص 30

II المبحث التطبيقي

1. عرض المدونة:

"...ومن خطبة له (عليه السلام):" أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الاْمَلِ;[1] فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الاْمَلِ فَيُنْسِي الاْخِرَةَ.

أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ[2]، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ ([3]) كَصُبَابَةِ الإِْنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُّهَا([4])، أَلاَ وَإِنَّ الاْخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الاْخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَد سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ" .([5])

2. دراسة البنية الخارجية لنص الخطاب:

تتمثل دراسة البنية الخارجية للخطاب في معتقدات المتكلم وشخصيته والكلام، والمشاركين في الحدث الخطابي [المرسل والمتلقي]، والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين [مبدأ التعاون]، والظروف المكانية والزمنية والعلاقات الاجتماعية بين الأطراف فيما يعرف بـــ [السياق].

أ. السياق المقامي للخطاب:

_ المرسل: المتكلم في الخطاب هو الإمام علي

---

[1] طُولُ الامل: هو استسهاح الأجل، والتسويف بالعمل.

[2] ـــ الحَذّاء ـــ بالتشديد ـــ: الماضية السريعة.

[3] ـــ الصبابة ـــ بالضم ـــ: البقيّة من الماء واللبن في الاناء

[4] ـــ اصطبّها صابّها: كقولك: أبقاها مبقيها، أوتركها تاركها.

[5] ـــ الإمام علي ، نهج البلاغة ،خ42 ، تحقيق: الشيخ فارس الحسّون ،(إيران : مركز الأبحاث العقائدية)، ص104

_ المتلقي: شيعة الإمام وأنصاره بصفة خاصة والمسلمون بصفة عامة

_ الزمن: ينتمي الخطاب إلى أدب صدر الإسلام، ويظهر هذا من خلال مولد الإمام من جهة والأحداث الموجودة في الخطاب من جهة أخرى بالإضافة إلى المناسبة التي يوردها الشريف الرضي جامع نهج البلاغة .

_ الموضوع: يتمثل موضوع الخطاب في ما أورده جامع النهج الشريف الرضي إذ يقول في مناسبة إلقاء الخطبة:" وفيها يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل في الدنيا " .[1] نكون بهذه المناسبة قد وضعنا الخطاب في مشهد دلالي معين، يمكن من خلاله فهم مقاصد الإمام وأهداف إلقاء خطابه .

_ استراتيجية إلقاء الخطاب: يمكن فهم استراتيجية إلقاء الخطاب من خلال مراحل الموضوع التي تنقسم إلى ثلاثة مراحل أو أفكار أساسية [تمهيد وعرض وخاتمة] على النحو التالي:

الفكرة الأولى: تمهيد معرفي ــ ق1:[أيها الناس...] إلى قوله:ق3 [....فَيُنْسِي الْاٰخِرَةَ]

الفكرة الثانية: عرض حجاجي ــ ق4:[...أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا] إلى قوله:ق5 [....وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ]

الفكرة الثالثة: النصح والتوجيه ــ ق6:[فَكُونُوا.....] إلى قوله:ق 7 [وَلاَ عَمَلَ].

ب. السِّياق الإشاري للخطاب:

_ الضمائر:

---

[1] ـــــ نهج البلاغة، المصدر نفسه. خ42، ص104

إن مصطلح الضمير شائع في التراث اللغوي العربي وهو عند القدماء ": اسم جامد يدل على متكلم أو مخاطب أو غائب "[1]، إذ تعد الضمائر من أهم وأبرز العناصر اللغوية، التي يتحدد معناها في إطار المقام؛ لقد اهتم المنهج التداولي بالضمائر لكونها تدخل في نسيج البنية العميقة للخطاب، إذ يمكن تقسيم تمثل بعض (الإشاريات) في هذا الخطاب إلى ثلاثة أقسام: ضمائر المتكلم، وضمائر المخاطب وضمائر الغائب كما هي موضحة فيما يأتي.

- **ضمائر المتكلم**: نجد ضمير المتكلم في هذا الخطاب انحصر في الضمير المتكلم المفرد [أنا] الذي يحيل إلى (الإمام علي)، وظفت مستترة :[إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ] وهي تعود على مرسل الخطاب الإمام علي.
- **ضمير المخاطب**: بمجرد تلفظ الإمام بما يعبر عن شخصه من أشكال الضمير [أنا]، فقد وضع (رضي الله عنه) أمامه وبطريقة آلية شخصا أو أشخاصا يقابلونه في خطابه، المعبر عنهم بالضمير [أنتم]، الذي وظف بأشكال أخرى من أشكال هذا الضمير، ويظهر في قوله:[أيها الناس]، وهو اسم ظاهر، [فَكُونُوا .... وَلاَ تَكُونُوا.....] وقد مثله الضمير المتصل [الواو]، وكلها تعود على المتلقي، وهي جماعة من أصحاب الإمام.
- **ضمير الغائب**: رغم أن التداوليين لم يعتدوا كثيرا بضمير الغائب ؛على اعتبار انه ليس من ضمائر الحضور، إذ يعتقد (بنفنيست) أن ضمير الغائب هو تعبير عن (اللاّشخص) بحجة أنّه يفتقر إلى علامة لسانية في هذا اللسان أو ذاك*[2]، إلا أنه

---

[1] ـــــ حسن عباس . **النحو الوافي**، (مصر: دار المعارف، ط3، 2003)، ص:196

[2] ـ ينظر :إميل بنفيست.**عن الذاتية في اللغة، تلوين الخطاب**– فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والحجاج(تونس:الدار المتوسطية للنشر، ط1 ، 2007)، ص110 .

يمكن معرفة هذا الشخص في خطاب الإمام علي من خلال الإسناد سواء أكان صريحا، أم غير صريح ؛ هذا ما جعل (أوركيوني) تعارض مقولة (بنفنيست)، ذلك لأن التصريح القائل بانّ الضمير [هو] تكمن وظيفته في التعبير عن اللاشخص يبدو غير صحيح تماما، إنّما يكون كذلك في بعض الأساليب التي يرغب المتكلم في تحديد طبيعتها . فالمتكلم هو الذي يحدد طبيعة الضمير من خلال السياق والأحداث أومن خلال ما وضحه الإمام؛ فقد بيّن ضمير الغائب(هي) في قوله:[قَدْ ولَّتْ] باسم ظاهر قبل الفعل [الدُّنْيَا]، كذلك الضمير(ها) في قوله : [لم يَبْقَ مِنْهَا] الذي يعود على الدنيا، وهذا الضمير يعدُّ محور موضوع الخطاب، كما وضح الضمير الغائب (هي) في قوله:[اصْطَبَّهَا صَابُّهَا] بالاسم الذي يلي الفعل وهو[صَابُّهَا].

أ. **الزمن:** أظهر الإمام حيثيات الزمن في الخطاب بغرض إفهام أوضح بما أعدّه للقارئ من عناصر وصيغ دالة على خصوصيته؛ فالمبهمات الزمنية في هذا النص تمثلت في قوله رضي الله عنه (...يَوْمَ الْقِيَامَةِ...)، (... الْيَوْمَ عَمَلٌ..) ويقصد به الدنيا، (غَداً حِسَابٌ..) ويعني به الآخرة؛ وإن كانت المبهمات الزمنية قليلة؛ لاعتماد الإمام على أزمنة الأفعال (الماضي والحاضر والمستقبل) لحظة إصدار الإمام لخطابه؛ حسب متطلبات استراتيجية الإلقاء وترتيب الأفكار ذات الشحنة الحجاجية القوية، والتي لها تأثير بالغ على المتلقي، كما تشير الإحصائيات التالية.

<table>
<tr><td>المرحلة التمهيدية :</td><td>مرحلة العرض:</td></tr>
<tr><td>ـــــ ق1، ق2،ق3 :(ثلاثة أفعال)
 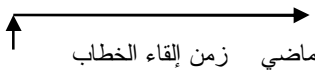
الماضي زمن إلقاء الخطاب</td><td>ـــــ ق4، ق5: (سبعة أفعال)
 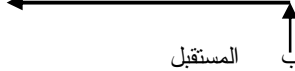
زمن إلقاء الخطاب المستقبل</td></tr>
<tr><td colspan="2">الخاتمة:
ق6،ق7(ثلاثة أفعال)
 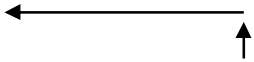
زمن إلقاء الخطاب المستقبل</td></tr>
</table>

النتائج:

(ثلاثة أفعال):23.07% (عشرة أفعال): 76.92%

الماضي الحاضـــــــــر المستقبل

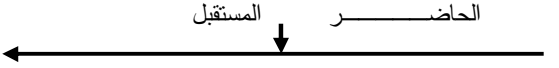

ومن خلال هذه الإحصائيات نتعرف إلى أن الموضوع يتجه نحو علاقته بالمستقبل، فالإمام بصدد التحذير والتنبيه مما هو آت وعلى الناس أن تستعد لهذا اليوم المستقبلي.

3 ــ دراسة البـنية الداخليــة للنص:

نعتمد في دراسة البنية الداخلية للخطاب الإقناعي على مجموعة من العناصر يمكن إدراجها ضمن الأفعال الكلامية كآخر مرحلة توصلت إليها الدراسات التداولية، وهي: ترتيب أجزاء القول، والأفعال الإنجازية، وسائل الإقناع والبراهين، والأسلوب والبناء اللغوي... ونظرا لتداخل هذه الدراسات وتكامل وظائفها في النص، فإننا نفضل التحليل الشامل لها من خلال ترتيبها وتنظيمها؛ تسهيلا للدراسة فيما يلي:

أ. التحليل الإجمالي للأفعال الكلامية:

إن الملفوظات (فــعــل القــول Acte d'énonciation) هي أفعال تنجز لحظة عملية التلفظ ؛ أي إطلاق الألفاظ على صورة جملة مفيدة ذات بناء نحوي سليم مع تحديد مالها من معنى (Sense)، ومشار إليه (Référence)، وهــذا الفعل يقع دائما مــع كل قول، ومع إعطائه معنى، وجد (أوستن) ضرورة إرفاق فعــل القــول بمرجع يحيل إليه. ثم توصل في آخر مرحلة من مراحل بحثه إلى

تقسيم [الفعل الكلامي الكامل] إلى ثلاثة أفعال فرعية ([1])، وهي: [الفعل الصوتي] أو فعل القول ؛ وهو التلفظ بسلسلة من الأصوات المنتمية إلى لغة معينة، و[الفعل التركيبي Syuntax] ؛ ويؤلف مفردات وتراكيب لغة معينة .

و[الفعل الدلالي Simantique] ؛ وهو توظيف هذه الأفعال حسب معاني ودلالات وإحالات محددة؛ أي التلفظ بالكلمات والجمل، يكون الوصف والإخبار هو الذي يميزه عن غيره من الأفعال، فالقول هنا يعني مجرد التلفظ بالفعل، أو بالمقول عامة .

أهم ملحوظة عامة يمكن استخلاصها من هذا الخطاب الوعظي هو وجود الصيغ **الخبريةِ أكثر من الصيغ الإنشائية**، وهذا من خصائصِ متطلبات خطاب الوعظ، إذْ يكون اهتمامُ المرسِل منصبًا على استغلالِ الشّحنةِ الحجاجيّة للتقريرِ، وكذا طاقة الأفعال الإنجازية من الأوامر والنواهي التي ترد بعد نهاية التقرير، فتعدّدت بذلك الأفعال الكلامية، تارة تعبيرية وتارة أخرى تقريرية كما هي في الفقرة الأولى، والفقرة الثانية في حين وظفت بأفعال توجيهية إنجازية سلوكية هي في الفقرة الثالثة، سواء أكانت أمرا أم نهيا.

كما جاءت الأفعال مباشرة وأحيانا تلميحية، وكلها شحنات حجاجية تهدف إلى إنجاز الأفعال وتحقيق الأغراض التقويمية السلوكية والتنبيه من الاغترار الدنيوي، ومن ثمّ تعددت الأهداف في خطاب الإمام علي، بغض النظر عن تحقق هذه الأفعال أو عدم تحققها من جهةِ المخاطَبِ؛ فيكفي تلفظ المتكلِّم بفعل كلامي، لنقول: إنه يراد به انجاز فعل ما.

[1] ــ ينظر: مسعود صحراوي، **التداولية عند العلماء العرب**، ص:20

_**القوة الإنجازية:** من خلال ما سبق يتبين أن فعل القول في خطاب الإمام، يبدأ من: [ق1] إلى غاية [ق8]؛ هذه الأفعال تحمل معاني التحذير والتنبيه، وهي أفعال تُحقِّق مع قولِها أمرين اثنين؛ الأول (القول ذاته)، والثاني محمول القول (فعل الإسناد Acte propositionnel)، إذ يربط الصلة بين المرسل والمرسل إليه ساعدت القوة الإنجازية لهذه المبهمات على توضيح حجج في الماضي وما يترتب عنها من سلوك في الحاضر، فهي آليات تساعد المتلقي والقارئ على السواء في استجلاء هذه المعاني وفهمها، خاصة مع وجود المعرفة المشتركة بين الإمام والمتلقي بصفتهما ينتميان إلى ثقافة إسلامية واحدة. ولكون القوة الإنجازية للأفعال الكلامية في هذا الخطاب تتدرج ضمن صنف أفعال السلوك) (Comporatifs التي تهدف إلى إبداء سلوك معين، كما ترتبط بإفصاح عن حالات نفسية تجاه ما يحدث للآخرين، أو بالسلوك الاجتماعي فنجدها قد وردت في خطاب الإمام على الشكل التالي:

الفعل السلوكي	زمن الحدث	غرضه
ق: 1ــ 2	الحاضر	تقرير وصفي غرضه التنبيه وتقويم السلوك.
ق:3ــ 4	الماضي	غرضه التنبيه والتأكيد.
ق:5 ــ6	الحاضر	الوعظ والإرشاد وتقويم السلوك.

_**الفعل الإنجازي (Acte illocutoire)** :

إذا كانت نظرية أفعال الكلام هي جوهر اللسانيات التداولية؛ كونها تهدف أساسًا إلى دراسة الفعل بوصفه حركة وفعلا وإنجازا؛ فقد عمد (أوستن)[1] في كثير

[1]- ينظر: أوستين جون، **نظرية أفعال الكلام العامة (كيف تنجز الأشياء بالكلام)** ، تر: عبد القادر قينيني،(إفريقيا الشرق 1991)، ص116 إلى 130.

من الأحيان إلى تسمية نظريته بنظرية [الفعل الإنجازي]؛ لذلك انصب اهتمام (أوستن[*]) بالفعل الإنجازي (•) أكثر من أي فعل آخر؛ لأن هذا الفعل " هوما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال، ومن معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي"[1]، وهو يرتبط عنده ارتباطًا وثيقًا بمقصد المتكلم، وعلى السامع أن يبذل الجهد الكافي للوصول إليه، ولهذا يقوم مفهوم قصد المتكلم الذي يعبر عنه بالإنجاز، بدور مركزي في نظرية الفعل الكلامي.

يؤكد(أوستين) بأن المنطوق لا يكون منطوقا أدائيا ناجحا، إلا أن يتم النطق به في ظروف ملائمة وسيكون لهذه الفكرة أخطر الأثر في نظرية (المنطوقات الأدائية)، طالما أن الوظيفة الأساسية لهذه النظرية ليست التطابق مع الواقع، ولذلك لا يمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، غير أن هذه المنطوقات لا تؤدي وظيفتها بشكل صحيح في كل الحالات، إذ قد يخفق المنطوق في أداء هذه الوظيفة بطريقة أو بأخرى"[2]، لذا وضع (أوستين) شروطا لتحقق (الأفعال الإنجازية)، تسمى(الشروط الملائمة) (Felicity Conditions) وحصرها في ثلاثة أنماط أساسية، كل نمط يحتوي على شرطين فهي ـــــ إذن ـــــــ ستة شروط على النحو الآتي:

---

[*] ــ أوستين، جون لانجشو .أستاذ بجامعة أكسفورد، (ت1960)، اشتهر بالفلسفة التحليلية ، أشهر مؤلفاته:(Quant dire,C'est Faire).

• ــ الفعل الإنجازي : هوالحدث الذي أوجده النطق سواء أكان هذا النطق اسما أم فعلا أم حرفا، فعند ما أقول:[رائع] فأنا أنجز فعلا هو[المدح]، فالإنجازية هي ما يقصده المتكلم بقوله، بحسب السياق.

[1] ــ آن روبول وجاك موشلار ، **التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)** ، تر : سيف الدين دغموش ،(بيروت ، لبنان :دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط 1 ،تموز 2003)، ص3 .

[2] ــ صلاح إسماعيل عبد الحق . **التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد** ، ص141.

- **المستوى الأول:** هي الشروط الأولية والتي تحدد وضعية المتكلم التي تسمح له بفعل خطابي ما

وهذا التحديد جعله أهلا لإصدار ملفوظه، وأن يكون منجزه في وضع اجتماعي يخول له سلطة القول.

- **المستوى الثاني:** هي [شروط الجديّة للفعل الكلامي] بمعنى التزام الصدق والإخلاص، وهومن الشروط التي تدخل في تمام البلاغة والإرسال، والتي تتوفر على نيّة وقصد المتكلم؛ حتى يتمكن من إيصال الفكرة والتأثير في نفوس المتلقين وسلوكاتهم، وقد أضاف (أوستين) إلى هذه الشروط شرطا آخر وهو [شرط الصدق] (Sincerity)؛ أي أن تتوفر للمشاركين المشاعر والأفكار والنوايا الأساسية[1].
- **المستوى الأخير**: يعبر هذا المستوى عن [الشروط الأساسية] التي تتكون من الأفكار والمقاصد.

إن توفر الإمام على هذه الشروط جعله يرسل سلسلة من الأفعال الكلامية غير المباشرة التي تحدث عنها (سيرل)، والذي يقر بأن الأساليب التي تدخل في نمط الأفعال الكلامية غير المباشرة، أضحت أعرافا في لغات عدة، وفسر ذلك انطلاقا من المعلومات المشتركة بين المتكلم والمستمع على القيام باستنتاجات فالخطاب يحتاج إلى متلق ذكي يستطيع إحالة الملفوظ إلى المقام والسياق الذي قيلت فيه ؛ وعليه فإن خطاب الإمام علي (رضي الله عنه) يندرج ضمن الأفعال الإنجازية والتأثيرية؛ لأن مضمونها نصائح وتوجيهات، وإرشادات وتقويم لسلوكيات، ولكون (أوستين) قد

[1] ــ ينظر: محمود أحمد نحلة . **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**، ص4 .

صنّف النصح والوصية ضمن الإنجازات فإنّنا نعتبر خطابَ الإمام علي خطابًا إنجازيًا بوضوح، وذلك بتوظيف استراتيجية الإلقاء ؛ برزت في عدة مراحل قطعها الإمام في إنجاز كلامه، والتي يمكن أن تتضح من خلالها مواطن اللغة الحقيقية ومساحتها من سواها.

ب. التحليل التفصيلي لأفعال الكلام:

ـــ تحليل المرحلة الأولى من الخطاب:

إن ابتداء الإمام خطابه بجملة إنجازية صريحة:[أَيُّهَا النَّاسُ] والفعل الإنجازي فيها هو الطلب والفعل التأثيري فيها هو لفت الانتباه بالنداء والدعوة؛ فالابتداء بهذا الأسلوب كان يمثل للمتكلم والمتلقي مفتتحا للفكرة الدالة على أجواء الخطاب، وبذلك ينبغي أن يجيء الكلام الذي بعد هذا النداء قد بلغ من السبك اللفظي والحبك الدلالي ما يـــحقق غاية الإبانة والوضوح وترسيخ الفكرة، لذا يظهر جَليًا أن النّداء يُساعد على تمتين عرى التّواصل بينهما، من خلال اعتماده على مبدأ المشاركة، ورغبة الإمام في إشراك الآخر في الخِطاب، بإلزامه أن يكونَ مُخاطِبًا. وبعدها يرسل الإمام سلسلة من الأفعال التقريريّة الوصفية المتصلة ؛ مثلت حلقات للوصل الدلالي موظفة بأسلوب البديع التداولي، وهوفن التقسيم الثنائي المفصل في قوله (رضي الله عنه)(إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ) هو لفظ استهله الإمام بأداة توكيد [إنّ] التي تعد من الروابط الحجاجية التي تفيد التوكيد والإثبات، وتقويّة الحِجاج، فتترك أثرَها على المتلقي، وقد تحقق هذا لما في هذا الأسلوب من شحنة حجاجية مؤثرة جدا، تمثلت في عنصر التشويق الذي ينتظره المتلقي لمعرفة أسباب هذا التخوف؛ ليجيب الإمام بفعل إنجازي قسمه إلى قسمين اثْنينِ [اتباع الهوى وطول الأمل]، ثم التفصيل في هذه الإجابة باستخدام [أما] التفصيلية في قوله : [فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ.] إن توظيف مثل هذا الأسلوب هو بمثابة حجة لدعم الفكرة وترسيخها في ذهن المتلقي بتنظيم وترتيب محكم؛ تمكّن المتلقي

من استيعابها وحفظها، خاصة وقد استوفى جميع الشروط البلاغية والفنية بـــــ"أن تقسيم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه""[1] يمكن أن يستوعبها الإنسان من خلال تتبع التنظيم والترتيب كما يلي:

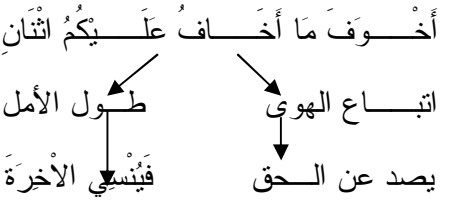

ــ تحليل المرحلة الثانية من الخطاب: تأتي المرحلة الثانية لتعزز المرحلة الأولى بشحنة حجاجية أخرى لها من الكثافة الشعرية والبلاغية ما يمكنها من تحقيق أهدافها الإنجازية من خلال توظيف مساحة اللغة المجازية عبر عمليات ذهنية استدلالية" هذه المساحة التي تتحدد في ثلاثة فروق جوهرية [2]' يمكن توضيحها في الجدول التالي:

الأفعال الإنجازية المباشرة	الأفعال الإنجازية غير المباشرة
ــ ملازمتها للقوة الإنجازية في مختلف المقامات ــ تؤخذ قوتها الإنجازية مباشرة من تركيب العبارة نفسها	ـــــــ لا تظهر قوتها الإنجازية إلا في المقام ـــــــ جواز إلغاء قوتها الإنجازية غير المباشرة ـــــــ التوصل إلى قوتها الإنجازية عبر عمليات ذهنية استدلالية

ففي قول الإمام وهوينبه قومه ناصحا وواعظا، ومحذرا أيّاهم من اتباع الهوى وطول الأمل في الدنيا معضدا هذا التنبيه بقرائن في قوله (رضي الله عنه):[أَلاَ وَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ وَلَّتْ حَذَّاءَ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الاْنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُّهَا.] لقد

[1] ــ عبد العزيز عتيق. **علم البديع**،(بيروت لبنان ، دار النهضة العربية، دت)، ص:134

[2] ــ ينظر :أحمد محمود نحلة.**آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر**،ص ص84.83 .

استهلّ القول بأداة تنبيه [ألا]، ثم أردفها بأداة توكيد [إن]، وهي وسائل لغوية فعالة في لفت انتباه المتلقي؛ نظرا لأهمية الموضوع والتأكيد عليه، ليتبعها بسلسلة من التقريرات وردت بلغة مجازية تنسجم مع حيوية الخطاب الذي انتقل به من المطلع التقريري المعرفي في إبراز تخوف الإمام على رعيته إلى ذكر أسباب هذا التخوف، كما في قوله: [أَلاَ وَإِنَّ الاْخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ] هي استعارة مكنية.

اعتمد الإمام في سرد هذه التقارير الوصفية الحجاجية على ثقافته الدينية وعمق تجربته الذاتية، وهي بمثابة قوة الفعل الإنجازي. في حين يندرج ضمن (التعبيريات) أوما يعرف بـــ (البوحيات) (Expressives) في تصنيف (سيرل) ؛ هدفها التعبير عـــن حالة نفسية محدّدة بشـــرط عقد النيّة والصدق في محتوى الخطاب عن تلك الأمور المحددة، وهذا ما نجده عند الإمام، فقد عبّر عن حالته النفسية بعقد النية والصدق والإخلاص؛ فالإمام علي الحريص على رعيته كان يهدف بخطابه إلى تقديم جملة من الحقائق في شكل تقرير؛ إذ تعهد بدرجات متنوعة بأنّ شيئا ما هو واقعة حقيقية. ولنجاح هذه (التقريرات) يشترط حيازة المتكلم على شواهد ترجح صدق محتوى القضية التي يقررها، فكان الخِطابُ خِطابَ وعظ وتقويمٍ وإصلاح عزّز تعبيره بتشبيه في قوله (ﷺ): صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الاْنَاءِ اصْطَبَّهَا صَابُّهَا]. فلم يتوقف تحقق الشعرية على علاقة التشبيه [صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الاْنَاءِ]، وإنما شارك ذلك ماهو موجود من تعدد في تأكيد المعنى في مقابل الإفراد [اصْطَبَّهَا صَابُّهَا]، ويدخل ذلك ضمن علاقة ثنائية طرفها الأول تقريري وطرفها الثاني توضيحي فكانت المرحلة الأولى تنمي الطرف الأول، ليدعم القول الإنجازي بتوضيح تفصيلي آخر [وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ] فلم يترك للمتلقي أي غموض في إدراك

مدلول الصورة خاصة إذا اعتمد المتلقي على المرجعيات المشتركة بينه وبين الخطيب على النحو التالي:

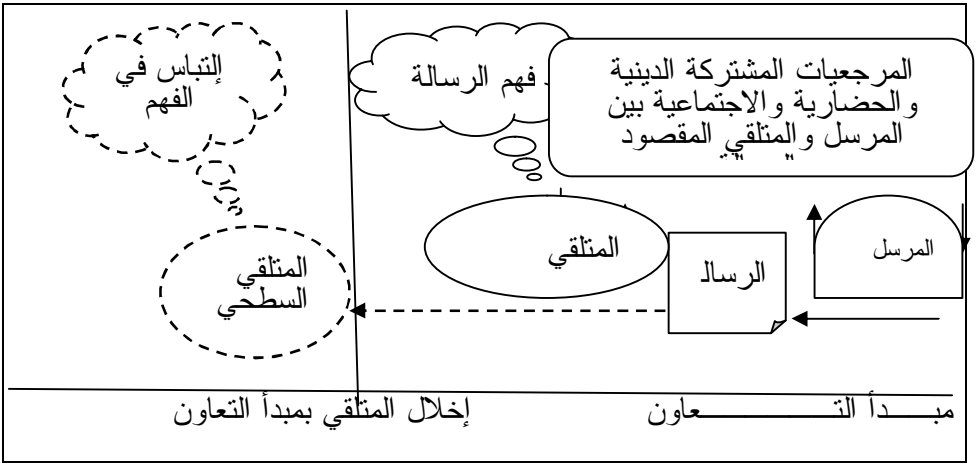

نموذج من تأليف الباحث حسب تصور نظرية (سيرل J.Searle)

_**تحليل المرحلة الثالثة من الخطاب:** هذه المرحلة هي مرحلة تقديم التوجيهات وسرد نتائج المضمون الدلالي المتعلق بالمرحلة الأولى

والمرحلة الثانية، المشبعة بوسائل الإقناع والحجج، وبذلك تعتبر هذه المرحلة نقلة جديدة في الخطاب على صعيد المعنى والأفعال الإنجازية التوجيهية، إذ وردت في لغة مجازية وبأسلوب بديعي تداولي في قوله: [...فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَد سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ] ؛ إذ نجد الكثير منها ينطبق عليها توصيف اللغة المجازية ؛ فتقوم الشِّعرية من ناحية الدلالة ـــــــــــ وهي الأكثر بروزا ـــــــــــ على تجسيد المجردات وإحلال القيم التي تشير إلى ممارسة معروفة محلاًّ، ففيها نلاحظ أن مستوى التعبير الدلالي الذي يحاول تقريب الفكرة عن طريق

اللغة المجازية: [...فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْاٰخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا]؛ هي أفعال كلامية ؛ تتكون من فعل إسنادي يتمثل في الجملة الفعلية المكونة من محمول فعل [فَكُونُوا]، وموضوع هذا الفعل الضمير المتصل[الواو] ؛ وهو فعل إحالي إلى المتلقي من شيعة الإمام علي وأصحابه بصفة خاصة والمسلمين بصفة عامة.

للإشارة، إن هذا الفعل الكلامي غير المباشر لا ينجز عملا لغويا واحدا بل اثنين ؛عملا أوليا يتمثل في الأمر ينجز بعمل ثانوي هو المقصد من الفعل الكلامي ؛ أي العمل الذي ينوي القائل إنجازه بواسطة جملته، إنما يتصل فقط بالعمل الأولي وهذا المقصد هو الذي ينبغي تبنيه، سواء أتحقق الفعل في الواقع أم لم يتحقق " من يقرر فهو يعبر عن اعتقاد ومن يعِد فهو يعبر عن نيّة، ومن يصدر أمرا فهو يعبر عن رغبة أو إرادة "[1]، ومن هنا تظل إنجازية الأفعال الكلامية متحققة ما دامت شروط النجاح المتمثلة في القواعد التأسيسية المثبتة بمجرد التلفظ بها قائمة، والآمر موجود وهو في وضع يسمح له بإصدار هذه الأفعال الكلامية. فالفعل الإنشـــائي (Acte performative) هو" الفعل المتضمن في القول، وهو الفعل الإنجازي الحقيقي، إذ إنه عمل ينجز بقول ما، وهذا القسم هو المقصود من نظرية الأفعال الكلامية برمتها"[2] ؛ لكونه يتحقق في القصد المتضمن في القول، إن كان نصحا أو عرضا أو تقييما أوحكما...، وهذا يعني أن الفعل الإنشائي هو التلفظ والإنجاز معا؛ أي هو الحدث الناجم عن التلفظ والقصد المتحقق من القول الذي قدمه الإمام علي من نصائح وتوجيهات لرعيته ؛ بأن تحقيق الفوز بالجنة مرهون بتغيير سلوكياتهم والالتزام بما شرع الله. كقوله(رضي الله عنه): [وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا]؛ فهذا الفعل الكلامي هو فعل توجيهي مثبت للفعل الإنجازي الذي قبله، إذ إن الإمام استعرض طريقين أو مشهدين الأول هم أصحاب الآخرة ؛ أي أصحاب الجنة وهم الفائزون،

---

[1] ــ طالب هاشم طبطبائي. **نظرية الأفعال الكلامية**، (لبنان: مركز الإنماء القومي، 1998 ــ 1999)، ص70.

[2] ــــــ ينظر: مسعود صحراوي . **التداولية عند العلماء العرب** ، ص 56 .

والطريق الثاني وهم أصحاب الدنيا؛ أي أصحاب النار وهم الخاسرون، مع وجود مسحة جمالية مؤثرة تتمثل في توظيف (المقابلة) التي تندرج ضمن الأسلوب البديعي التداولي [فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْاٰخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا] فالفعل التلفظي فيه يتكون من [فعل إسنادي] المكون من محمول الفعل [فكونوا .....وَلاَ تَكُونُوا] وموضوع الفعل فيهما على الترتيب [مِنْ أَبْنَاءِ الْاٰخِرَةِ] [مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا]، وفعل إحالي إلى الضمير المتصل في الفعلين [الواو] الذي يعود على المتلقي [أصحاب الإمام علي] .

أما الفعل الدلالي فقد تشكل من تحذير الإمام للمسلمين بصفة خاصة والناس بصفة عامة من عدم اتباع الهوى وطول الأمل في الدنيا والعمل بما ينفعهم في الآخرة، موظفا الحجة والدليل المتمثل في التقرير المقدم في بداية خطاب المرحلة الأولى والمرحلة الثانية، ولكون هذا الفعل ألإنجازي يشتمل على أمـــر زائـــد هو فعل [القوة Force] التي للقول، فيقال مع القيام ب[فعل القول] والفعل[الإنشائي] ينشأ [فعـــل التأثير]، الذي يتوقف أثره على المعنى المعطى للقول؛ لما له من تأثير في نفوس المتلقين، وتقويم سلوكهم ؛ بغية إحداث استجابة حسنة لديهم عن طريق الإقناع.

ولأن النفس البشرية تنفر ــ غالبا ــ من الأوامر الفوقية المباشرة غير المبررة، فقد أوجد الإمام حجة ملحقة تزيد في الإيضاح وتبلغ من التأثير حد الإقناع على نحو كان الفاعل؛ أي المتكلم قد عمد إلى إيجاده، ويسمّى هذا الفعل: [الفعل الناتج عن القول]. كقول الإمام علي: ق5 [فَإِنَّ كُلَّ وَلَد سَيُلْحَقُ بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ]؛ فهذا القول يتكون من [فعل إسنادي] يتمثل في الجملة الفعلية المكونة من محمول فعل [سَيُلْحَقُ] وموضوع الفعل الأول هو الفاعل المشار إليه بالاسم الظاهر قبله [كُلَّ وَلَد] الذي يعود على[الناس]، وفعل إحالي يحيل إلى المفعول [بِأُمِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] بالإشارة إليه بالاسم. أما [الفعل الدلالي] فهو

يتشكل من القضية نفسها المشار إليها سابقا، وهذا يتطلب الاستلزام المنطقي المتمثل في تدخل الإمام علي كخليفة وأمير المؤمنين؛ ليحذر رعيته؛ فينشأ من ذلك فعل (التأثير) المتّسبب في نشوء آثار في مشاعر أو أفكار المتلقي بتقويم سلوكهم؛ بغية إنقاذ أنفسهم لما ينتظرهم غدا من حساب. مع ملاحظة أن هذه الأفعال" هي ليست أفعالا ثلاثة يستطيع المتكلم أن يؤديها واحدة تلو الأخرى، بل هي جوانب لفعل واحد " [1]. وردت صياغة هذا القول في أسلوب إقناعي امتزجت فيه آليات لغوية ووآليات بديعية

وبلاغية، كلها تهدف إلى التأثير في المتلقي منها: أدوات التوكيد [إن] التي بينت أن المتلقي من النوع المتردد في تغيير سلوكه. عمد الخطيب إلى الإكثار من هذه الأدوات، فوظف البديع المتمثل في التقابل الذي يجعل المتلقي بين مشهدين، المشهد الأول دنيوي:[الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ]. والمشهد الثاني أخروي:[وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ]. وهما مشهدان يجعلان المتلقي يتخيلهما قبل وقوعهما؛ فيكون لذلك الأثر الكبير في سلوكه، مما يدفعه إلى محاسبة نفسه وتقويم سلوكه.

نتائج البحث:

- من خلال تحليل البنية الداخلية والبنية الخارجية لخطاب الإمام علي بتوظيف المقاربة التداولية، خَلُصَ البحثُ إلى مجموعة من النتائج:

أولا: ما يتعلق بنتائج تحليل خطاب الإمام علي الحجاجي:

_ إنَّ رِفعةَ أسلوب الإمام وتأثيره القوي في المتلقي، يكمن في سمو المعاني، وقوة الأساليب اللغوية

---

[1] ـــــــ ينظر : محمود نحلة، **آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،(** الإسكندرية :دار المعرفة،2002)، ص67

والأساليب التبليغية التي تأسست على استراتيجية الإقناع وترتيب الأفكار، والتي يمكن حصر مكوناتها فيما يأتي:

- اعتماد الإمام على وسائل الإقناع اللغوية والبلاغية والروابط الحجاجية، بمختلف أنواعها، وظفها حسب مقتضى الحال آخذا بعين الاعتبار نوع المتلقي، وأضرب الخبر البلاغية.
- عملت الإشاريات في الخطاب على تقريب المرسل إليه من المرسل، ومن ثمّ التأثير فيه.
- المعرفة المشتركة والتعاون الثقافي والاجتماعي والفكري بين المرسل والمتلقي، ساعد في تأسيس الحجاج والإقناع.
- اعتماد الإمام على لغة التوجيه والتنبيه والإقناع، بعيدا عن الخصام والمغالبة.
- مكَّن الإمام علي (ﷺ) عن طريق الخطاب الإقناعي من تصحيح الكثير من المسارات الخاطئة في التفكير السلوكي لدى المتلقي.

ـــــــــ نجاح الخطاب الإقناعي الحجاجي مرهون بامتلاك الخطيب كفاءة تواصلية وإقناعية متمثلة في:[مهارة التحليل والابتكار، ومهارة التعبير والعرض المنظم للأفكار، ومهارة فهم دوافع نقد الآخر وحسن توجيهه].

ـــــ ثانيا: ما يتعلق بالمقاربة التداولية : إن هذه الدراسة التطبيقية المقترحة مكنتنا من تحليل نص هذا الخطاب التراثي بالمقاربة التداولية بعيدا عن التعقيدات وكثرة التصورات وتداخل المصطلحات، مع الحرص على عدم الإخلال بجوهر المقاربة التداولية، وذلك بحصرِها شاملةً ومنتظمةً في دراسةِ البنيّة الداخليّة والبنيّةِ الخارجيّة للنّصّ، من خلال توظيف عناصرِها التحليلِية ك:(السّياق والقصدِ وأبنيّةِ الحجاجِ والأفعال الإنجازية، والأدواتِ اللغويّة والأساليبِ والأبنيّة التعبيريّةِ التي تدل على أن الخطابَ خطابٌ أدبيٌّ حجاجيّ) ونعتقد أنها حققت أهدافها باعتبار ما استعرضناه من نتائج تحليل خطاب الإمام علي، والظروف التي كانت سببا في نجاح العملية التبليغية.

قائمة المصادر والمراجع:

3. أوستين،جون، نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلام)، تر: عبد القادر قينيني،(إفريقيا الشرق 1991)
4. آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، تر : سيف الدين دغموش،(بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1 ،تموز2003)
5. الإمام علي.نهج البلاغة، تحقيق: الشيخ فارس الحسّون، (إيران: إعداد مركز الأبحاث العقائدية)
6. إميل بنفيست.عن الذاتية في اللغة، تلوين الخطاب ــ فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والحجاج (تونس:الدار المتوسطية للنشر، ط1 ، 2007)
7. أرمينكو فرانسواز. المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش،(الرباط: مركز الإنماء القومي، مكتبة الأسد، 1986)
8. بنظافر الشهري عبد الهادي. استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، (بيروت: دار الكتاب الجديد، ط1، 2004)
9. ـــ بوقرة، نعمان.المدارس اللسانية المعاصرة،(القاهرة: مكتبة الآداب، دط، د ت)
10. حمداوي، جميل . في المقاربة التداولية في الأدب والنقد، (بيروت، لبنان :دراسة ضمن مجلة العربية والترجمة،ع 9 المنظمة العربية للترجمة . ربيع 2012)
11. حسن، عباس . النحوالوافي، (مصر، دار المعار ف ط3. 2003)
12. خوسيه ماريا، بوثويلوإيقانكوس. ترجمة حامد أبوحمد،(القاهرة: مكتبة غريب)
13. صحراوي مسعود،التداولية عند العلماء العرب .(حسين داي الجزائر، دار التنوير للنشر، ط1، 2008م)
14. صلاح إسماعيل،عبد الحق. التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد،(بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر ــ ط1 ،1993)
15. طبطبائي طالب هاشم. نظرية الأفعال الكلامية،(لبنان: الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، 1998 ــ 1999)
16. العمري محمد. في بلاغة الخطاب الإقناعي،(المغرب: إفريقيا الشرق،(دط)، 2002)
17. عتيق.عبد العزيز. علم البديع،(بيروت ــ لبنان : دار النهضة العربية، ــ دت)
18. مانغونو، دومنيك. المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب،.ترجمة محمد يحياتن، (الدار العربيّة للعلوم،ط2008،1)
19. نحلة محمود، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، (الإسكندرية: دار المعرفة،، 2002)